مجلة الحكمة للدراسات الفلسفية
Eissn :2602-5264 Issn : 2353-0499
المجلد 9 / العـدد: 02 (2021)، ص 576- 602

أزمة الحداثة عند يورغن هابرماس: من التشخيص إلى التجاوز.

The crisis of modernity for Jürgen Habermas : from diagnosis to transcendence.

د.معرف مصطفى[1]

[1]جامعة جيلالي ليابس /سيدي بلعباس(الجزائر).

تاريخ الاستلام: 2021/08/31 تاريخ القبول: 2021/09/05 تاريخ النشر: 2021/10/07

ملخص:

يعتبر الفيلسوف الألماني يورغن هابرماس J. Habermas (1929 –) من أبرز المفكرين الألمان المعاصرين المنتمين للتيار الفكري لمدرسة فرانكفورت أو النظرية النقدية الجديدة. و هو من الفلاسفة القلائل الذين طوروا النظرية النقدية في بعديها الفلسفي والسوسيولوجي، إذ ترجع أهمية الدور الذي يقوم به في تمسكه بدور الفلسفة، وإعادة توظيفها وضرورة انخراطها في أي نظرية تخص مستقبل المجتمع الحديث، إلى جانب إيمانه بالحداثة كمشروع لم يكتمل بعد، وتمسكه بإعادة الطاقة النقدية لعقل التنوير في عصر ارتفعت فيه الأصوات المطالبة بالتخلي عن مشروع الحداثة، وإعلان الإفلاس الفكري والفلسفي، و بعد ان تفشت في المجتمعات الغربية كل اشكال اللاعقلانية، خاصة العقل الأداتي والاغتراب، و الاستلاب، وضياع مكانة الفرد، و انحصار الحرية، و سقوط المجتمعات الصناعية في نزعة الاستهلاك و التشيء .

يقوم هابرماس بقراءة نقدية فاحصة "لازمة الحداثة" الاوروبية، محاولا اعادة الثقة للمشروع الحداثوي، باعتباره مشروعا غير مكتمل، منطلقا من تحليل متكامل حاول من خلاله صياغة قيم جديدة للفكر، تكون متحررة من اشكال التسلط، والهيمنة، ووضع قواعد جديدة تقوم على الحوار، والحرية وتفعيل اللغة بين الأفراد، بتقديمه لنظرية الفعل التواصلي، كنظرية اجتماعية تعزز

الديمقراطية التشاورية، مستندة على اللغة والحوار، وهادفة الى تأسيس فضاء عمومي، يؤطره العقل التواصلي، وأخلاق المناقشة.

الكلمات المفتاحية : يورغن هابرماس، أزمة الحداثة، الفلسفة النقدية، العقل الأداتي ، العقل التواصلي.

Abstract:

The German philosopher Jürgen Habermas (1929 - .....) is considered as one of the most prominent contemporary German thinkers of the Frankfurt school or new critical theory. He is one of the few philosophers who developed critical theory in its philosophical and sociological dimensions. He focuses on the role of philosophy, its re-employment and the necessity of its involvement in any theory concerning the future of modern society.

Furthermore, its importance is due to his belief in modernity as an unfinished project, and his adherence to restoring Criticism of the Enlightenment in an era in which voices were raised to demand the abandonment of the project of modernity, and the declaration of intellectual and philosophical failure, as a result of a critical situation of decadence and irrationality in western societies mainly during the first half of the twentieth century. Habermas's analysis of this situation was developed through many appropriate concepts such as: the instrumental mind, alienation, loss of individual status, the restriction of freedom and the fall of industrial societies in fierce state of consumption and objectification.

Habermas achieved his critical view about European "modernity crisis", trying to restore confidence in the modernist project, which was seen as an incomplete project. He started from an integrated analysis that tried to formulate new values of thought, free from all forms of domination. He tried to establish

new rules based on dialogue, freedom and activation of the role of language between individuals through "communicative action theory" , as a social theory that promotes participative democracy, based on language and dialogue, and aims to establish a public space, framed by the communicative mind and ethics of debate.

Keywords: Jürgen Habermas, crisis of modernity, critical philosophy, instrumental mind ,communicative mind.

المؤلف المرسل: د.معرف مصطفى

1 -مقدمة:

لقد كان من نتائج التنوع الكبير في الاتجاهات الفلسفية المعاصرة، بروز مدارس متعددة أثرت على الفكر الفلسفي عامة والغربي خاصة، والتي كان على رأسها مدرسة النقد الاجتماعي، أو مدرسة فرانكفورت (ينظر التعليق رقم: 1). ارتبطت أفكار هذه المدرسة بالجانب الاجتماعي العملي في السلوك، وانصب اهتمامها على تشخيص أسباب الأوضاع السيئة في الواقع الاجتماعي، جاعلة من النقد غاية في ذاته، وتجلى ذلك في انصراف اهتمامها إلى نقد الواقع السياسي والاقتصادي، أو بالأحرى نقد الفكر من حيث هو وثيق الصلة بمواقف اجتماعية معينة.

اكتسبت المدرسة التي شكلت أهم الروافد الفكرية ليورغن هابرماس، مكانة فلسفية بالغة الأهمية، إذ أصبح هابرماس واحدا من أبرز فلاسفتها و مفكريها الاجتماعيين (ينظر التعليق رقم:2) ، فهو الذي قاد النظرية النقدية نحو مرحلة متقدمة من الشمول والاتساع، معززا الثقة بأفاق العقلانية ومشروع الأنوار.

يعود هابرماس في تحليلاته الفلسفية النقدية، الى أغلب النصوص التي تحدثت عن الحداثة modernité منذ فلسفة الأنوار إلى فلسفة ما بعد الحداثة

postmodernité، كما جاءت نظرته مغايرة حول هذا المشروع، حيث وقف في وجه التيارات الفلسفية التي اتخذت من نقد ومعادات الحداثة مدخلا لمشروعها المجتمعي، وذلك عن طريق التأسيس لما أطلقت عليه بتيار ما بعد الحداثة. في حين أن هابرماس و على عكس ذلك الطرح، يعتقد أن الحداثة مشروع ناقص، لما يحقق بعد كل وعوده، ولما يستنفذ العقل الأنواري هو الاخر كل طاقاته .

فكيف استطاع هابرماس رسم معالم خطابه النقدي؟ وما هي طبيعة المشروع الفلسفي والاجتماعي الذي يحذوه لتشخيص وتجاوز أزمة الحداثة؟

2-مشروع الحداثة وآفاق التنوير:

يمكن النظر إلى التنوير، على أنه حركة تاريخية وعملية فكرية وسياسية، وليس مذهبا أو نظرية أو نظاما، إنه رؤية وطريقة وموقف فكري وثقافي، يقوم على الإيمان بالعقل والعلم والحرية والتسامح والتقدم والسعادة البشرية (بغورة ،2009، ص 73- 74)، فالتنوير هو رغبة في أن تكون الشؤون الإنسانية مرتبطة و ومرهونة بقيادة العقل، والإيمان و بقدرته على أن يغير المجتمع ويحرر الفرد، فقد أصبح التنوير فكرة تدعو إلى اعتماد العقل والعلم والحرية والتقدم، من أجل الاعلاء من الوجود الإنساني، وإطلاق العنان للحريات من خلال النور المشاع الذي أنار دروب التقدم.

إن مشروع الحداثة المتساوق مع ظهور التنوير، لم يكن بالإمكان بلورته لولا التأثر بنموذج العلم الطبيعي والاكتشافات العلمية، وتأثير الأحداث السياسية، وخاصة الثورة الإنجليزية سنة 1668، التي أكدت على حق الشعب في تحديد شكل الحكومة، وأدت إلى قيام ثورة تحررية في أمريكا سنة 1776، وتوجت بالثورة الفرنسية التي قامت سنة 1789، التي اعلنت عن مبادئ حقوق الإنسان وقيام المواطنة (دوريندا،2008، ص59).

كما أدى الإصلاح الديني إلى نقد الكنيسة الكاثوليكية، وخاصة بعد ظهور طوائف دينية عديدة أهمها البروتستنتية، ولم يعد الشخص المتدين يتعرض لمضايقات الكنيسة مما نتج عنه تحطم الوحدة المسيحية، ومن هنا ظهرت أفكار حول التسامح الديني وضرورة الفصل بين الكنيسة والدولة وأصبح الفرد يقرر بنفسه مسائل إيمانه وجديد العلم في هذه المرحلة هو سيطرة النموذج النيوتونيIssac Newton [1642-1727]، وإيمان الحركة الفكرية والثقافية بفكرتين هما الحرية والكمال وقد عبر عنها فولتير أفضل تعبير، واتخذ لنفسه شعارين أساسيين الأول: "سعادة الإنسان هي في العقل والحرية" والثاني: "قد اختلف معك في الرأي ولكنني على استعداد لأن أدفع حياتي ثمنا لحقك في الدفاع عن رأيك"، وأما الكمال فكان يعني أن البشر جميعا يمكنهم أن يبلغوا على هذه الأرض قدرا من الكمال، لقد كان الفكر الغربي حتى تلك اللحظة يظن أن هذا الكمال هو من نصيب المسيحيين دون سواهم، وأنه يأتيهم نعمة من الرب بعد الموت، فقد أدى هذا الموقف النقدي إلى القول بالعقلانية والمادية والدين الطبيعي، وبذلك فقدت الكنيسة الكاثوليكية من هيبتها (بغورة ،2009، ص 74-78).

لقد عمل التنوير على نقد التطرف الديني والدعوة إلى التسامح، وهذا كله راجع للإيمان الكبير بالعقل، وقدرته على إعلاء مبادئ حقوق الإنسان، وبروز نموذج النظام النيوتوني الذي سيطر على العلوم، جراء التقدم الباهر في حقول الرياضيات والفيزياء. وبذلك احتلت مقولة العقل المكانة الأولى في القرن الثامن عشر، واصبحت العقلانية نموذج التفكير العلمي السليم الذي يمكن الانسان من فهم الطبيعة ومن صياغة سلوكه وفقا لذلك. فالعقل يمكن أن يبين للناس كيف كانت تعمل الطبيعة، وكيف يمكن أن تعمل، إذا ما كف الناس عن إعاقة عملها بمؤسساتهم وعاداتهم غير الطبيعية، فالعقل يمكن أن يهدي الناس إلى قوانين

الطبيعة التي انتهكوها بجهلهم لها (كرين، 1984، ص172)، لقد كانت مسألة التنوير ظاهرة فريدة، ولدت أفكار راسخة لمفكرين عظام حملوا راية العقلانية من أجل الحرية والتقدم.

في نفس السياق، أطلق كانط أكثر العبارات ترديدا حول سؤال التنوير، حين صرح بانه: خلاص الإنسان من سذاجاته التي جلبها لنفسه، وذلك باستخدام عقله دون أن يشوهه التعصب ودون أن يوجهه الآخرون بمعنى، أن تكون عند الإنسان شجاعة أن يعرف فهذا هو جوهر التنوير، فعندما يقرر استعمال الشعب العقل البشري، يجب باستمرار أن يكون حرا وبهذا وحده يمكن للتنوير أن ينتشر بين الناس فقد تميز التنوير بتناوله لسلسلة من المعضلات والمساجلات التي دارت حول المواضيع الحساسة التي ميزت القرن الثامن عشر وهو فترة تجمعت فيها مشاريع الإشعاع العقلاني، ويفهم القصور عند كانط على أنه نوع من إرادتنا التي تقبل سلطة الآخر علينا التي تقودنا في ميادين ثلاثة وهي: عندما يصبح الكتاب بديلا عن فهمنا وعقلنا، وعندما يتولى رجل الدين توجيه ضميرنا الأخلاقي، وعندما يقرر الطبيب نظامنا الصحي، ولكي يستخدم الإنسان عقله عليه أن يتخطى الكسل، والجبن، وحكم الأوصياء ممثلا في الكتاب والطبيب ورجل الدين، وعليه أن يتجاوز حالة القصور التي أصبحت ملازمة له حيث أن الشرط الأساسي للتنوير هو الحرية، فالتنوير لا يتطلب شيئا غير الحرية، وهي حرية الاستخدام العلني للعقل في كل الأمور، من هذا المنطلق يمكننا أن نعتبر العقل هو تدشين رسمي للتنوير، ولحرية الإنسان الذي أصبح يؤمن بالمستقبل المشرق الواعد القائم على العلم واحترام حقوق الإنسان مؤمنا بعقل حر، ومستنير عقل من دون وصاية.

3-النقد الجذري للتنوير واعادة التفكير في أزمة العقلانية والحداثة:

لقد عرفت النظرية النقدية ثلاثة أنواع من المحطات، شهدت الاولى حوارات والتر بينيامين وأدورنو في أواخر 1929 ،والثانية في 1937 حيث تم تحرير كل من "النظرية التقليدية والنظرية النقدية " لهوركهايمر، و"الفلسفة والنظرية النقدية" لماركيز، والثالثة هي التي تميزت باللقاء الحاسم والتعاون الفكري المتفرد الذي جمع هوركهايمر وأدورنو، سواء حين وقعا كتبا بشكل ثنائي أو حرر كل واحد كتابات بتوقيعه الخاص، ففلاسفة هذه النظرية ولاسيما هوركهايمر و أدورنو(ينظر التعليق رقم: 3) ، وماركيوز (ينظر التعليق رقم: 4) حاولوا انطلاقا من ممارستهم للنقد، أن يفكروا في مسألة مهمة ألا وهي التغبير، ولكن ليس باعتباره نتاج دينامية الصراع الطبقي كما تقول الماركسية، ولكن من منطلق تفكير الإنسانية في نفسها، واعتمادا على شكل جديد من النظرية الاجتماعية. وزيادة على هذا، فقد اعتبر مفكرو النظرية النقدية أن تداخل الاختصاصات شرط لابد منه وضروري في النظر الفلسفي، وأن على الفلسفة أن تدمج اجتهادات متنوعة، مختلفة تندمج من قبل الاقتصاديين والمؤرخين، ومن علماء النفس وغيرهم في صياغة أسئلتها (أفاية ، 1998، ص ص 16-18)، وزيادة على ضرورة تداخل الاختصاصات في النظر الفلسفي فقد قامت النظرية النقدية بنقد جذري لمشروع التنوير، بما هو رمز للحداثة الغربية، وقد ظهر هذا بصورة واضحة في جدل التنوير الذي كتب بالمشاركة مع ماكس هوركهايمر وزميله ثيودور أدورنو.

لقد أنجز كتاب جدلية التنوير ما بين سنتي 1941-1944، ونشر في أمستردام سنة 1947 وتمت إعادة نشره في ألمانيا سنة 1969 بعد أن أصبح مرجعا كلاسيكيا، إذ يمثل المؤلف ثمرة جهد مكثف، ومشترك بين هوركهايمر و أدورنو طيلة تلك المدة (الخوني ، 2006، ص 132).

يعتبر التنوير، وعلى مر الزمن وبالمعنى العريض، تعبيرا عن فكرة التقدم وهدفه تحرير الإنسان من الخوف وجعله سيدا، أما الأرض التي تنورت كليا، فهي

تشع بشكل يوحي بالانتصار حيث أن برنامج التنوير يهدف لفك السحر عن العالم حيث أراد التحرر من الأساطير وأن يحمل للمخيلة سند العلم (هوركهايمر ، أدورنو ، 2006، ص23)، وتعتمد حركة التنوير بشكل أساسي على مقولة العقل، إذ تعده أحد أهم مبادئها المشتركة الموجهة حيث أن كلمة "عقل" كانت تعني في القرن الثامن عشر قدرة الإنسان المستقلة، أي المرتكزة على حريته في تحديد ذاته على التفكير الإحساس والفعل. باختصار على السلوك بطريقة مخططة وخالية من التناقض طبقا لهدف نهائي مؤسس وكلي، حيث سعى المشروع التنويري على بناء عقل فعال مستندا على العلم، ورفض كل الهيمنة وأشكال التسلط الذي تفرض عليه، من خلال قدرة الإنسان على الفعل، وخروجه من كل القصور الذي قد يبقيه داخل سجن الهيمنة والتسلط الذي يفقده البصيرة في استعمال عقله بشكل حر (بورحلة وآخرون، 2013، ص 42).

تقدم جدلية التنوير تفسيرا كليانيا لجدلية مسار الحضارة الغربية في مجموعها، أي منذ نشأتها إلى ما آلت إليه من وحشية النازية، ووفق هذا المبدأ الجديد يكتسب النضال الطبقي الذي كان مبدأ عمليا للنظرية النقدية في مرحلتها السابقة معناه في مبدأ أعم منه بما أنه أحد وجوه النزاع بين الإنسان والطبيعة حيث تبحث هذه الجدلية عبر تجذير النقد وتوسيعه الى الارتقاء لفهم منطق حركة العقل والحضارة، و لا تكون الغاية منه بديل أو دعاية لأحد الحلول الجاهزة، بل تركيزا لفكر نقدي ينفي الواقع بواسطة العقل، دون أن ينفصل عنه أو يعلو عليه. وهكذا يقترح الكتاب مشروعا شاملا لنقد العقلانية والحداثة الغربية داخل مجموعة الحضارة الغربية، وقد تمثل الغرض الأساسي من تدوين هذا المؤلف هو محاولة فهم أسباب انحدار الإنسانية إلى هذا الدرك المخيف من البربرية والوحشية القائمة، حيث أصبح الفرق شاسعا وعميقا جدا بين النظرية والممارسة، اي بين المبادئ التي يفترض للتنوير الدفاع عنها، والواقع المزري الذي

تتخبط فيه الإنسانية والمنذر بكارثة حقيقية تتهاوى فيها القيم الانسانية، فاسحة المجال لكل اشكال السيطرة.

4- نقد العقلانية الأداتية و مأزق الحداثة:

لعله من الاهمية بمكان ابتداءا، الاشارة الى بعض التحديدات المفاهيمية، حيث ان هناك فرق بين كلمة حديث moderne ،والحداثة modernité ،فكلمة حديث توضع في مقابل تقليدي أو قديم، وتصبح كلمة معيارية، تعني أن الحديث دائما أحسن من القديم، ففي عبارة "العلم الحديث، العالم الحديث" ،ثمة إيحاء بأنه علم أحسن وعالم أفضل، وهذا كله نتيجة لارتباط الرؤية التحديثية بفكرة التقدم، وبهذا يصبح معنى الحديث يحرك الإنسان نحو عصر جديد، فهو اندفاع نحو العصرنة من خلال تجاوز الماضي. أما الحداثة، فهي تعبير عن الوعي بالزمن وبقيمة الوقت (بغورة ، 2009، ص 45)، وهي لحظة الصيرورة التي تنتج من علاقة الحديث بالقديم، وتسعى إلى عقلنته وأنسنته، لذلك تبقى مشروعا يحاول إنجاز ذاته.

انطلقت المراجعات النقدية والفلسفية لمفكري مدرسة فرانكفورت، من مشروع التنوير بما هو لحظة تأسيسية للحداثة الغربية، ومن أهم الأسس أو المبادئ التي قام عليها هذا المشروع العقل والحرية والعدالة، واحترام كرامة الإنسان، وحقوقه وفكرة التقدم الإنساني، وهذا قصد التخلص من الظلم الذي ظل يعاني منه الإنسان، ومن مختلف أشكال السيطرة التي عرفها في ظل المؤسسات الدينية التي كانت سائدة في أوربا في تلك الفترة (بومنير ، 2010، ص12). ويمكن القول أن القرن الثامن عشر هو قرن النقد، وذلك لارتباطه بحركة دينية وفلسفية شاملة وبالتالي خروج أوربا من ظلام الجمود والظلم والأساطير، منتقلة إلى أنوار العقل والحرية والتقدم.

كما توجه فلاسفة المدرسة بجهدهم الفلسفي إلى غاية أساسية، وهي بناء نظرية نقدية تعني بالجانب الاجتماعي العملي، نظرية اجتماعية معيارية تحاول فهم وتشخيص أسباب الأوضاع البائسة في الواقع الاجتماعي، التي لازمت المجتمعات الغربية طيلة النصف الأول من القرن العشرين جراء الحروب والاضطهاد لبني البشر وصعود النازية والفاشية، والنظم السياسية الشمولية (المحمداوي ، ومهنانة ، 2012، ص67). فالنظرية النقدية هي نظرية نقدية للمجتمع، ومن ثم فهي الفضاء الذي احتوى المضامين الاجتماعية الواقعية التي أخذت الناس موضوعا لها، كونهم المصدر الأساسي المعبر عن الأشكال الموضوعية المتعلقة بحياتهم التاريخية.

أفضى النقد الاجتماعي والفلسفي لمدرسة فرانكفورت الى مفارقة، إذ كيف لعملية التنوير نفسها التي كان من المفترض وبحسب مفكرين التنوير في القرن الثامن عشر، أن تفك أسر الإنسان وتقوده إلى حريته قد أتت بنتائج عكسية. فقد أحكمت النزعتان الصناعية والرأسمالية قبضتهما في القرن التاسع عشر، حيث تعرض البشر إلى شبكات أكثر توغلا من الانضباط وسيطرة الإداريين، وكذا النظام الاقتصادي لا يفتأ في توسيع الهوة بين الطبقية الرأسمالية، عاملا على خلق مظاهر الاغتراب والاستلاب والتشيء، وبدلا من أن تفك عملية التنوير أسر الإنسان من الطبيعة تجدها قيدته وهو بدوره جزء من الطبيعة، وبدلا من الرخاء الاقتصادي شاع الشقاء، والفقر وبدلا من التقدم الأخلاقي حدثت انتكاسة إلى البربرية والعنف والتعصب (فينلسون ، 2015، ص24).

لقد تبين أن هذا المشروع التنويري الحداثي أصبح أبعد بكثير عن كل المبادئ والقيم الإنسانية التي قام عليها. فهو لم يعد قادرا على تحرير الإنسان من أشكال السيطرة التي أصبحت تهدد وجوده، خاصة في ظل النظم السياسية والاقتصادية الشمولية أو التوليتارية التي بلغت قمة من الطغيان، في اللحظة التاريخية

الحاسمة والخطيرة التي عايشها هابرماس و فلاسفة مدرسة فرانكفورت، فقد اختلفت الحرية وغاب العقل وانقلب كل تقدم إلى انحطاط شامل، هذا ما أشار إليه كل من هوركهايمر وأدورنو في مقدمة كتاب جدل التنوير بقولهما: "لم يكن لدينا أدنى شك أن الحرية في المجتمع لا انفصال لها عن الفكر المتنور، لقد كانت هذه نقطة انطلاقنا الأولى، بل لقد كان علينا أن ندرك وبوضوح أن مفهوم هذا الفكر ناهيك عن الأشكال التاريخية العينية، ومؤسسات المجتمع التي يتواجد فيها هذا الفكر، إنما تنطوي على بذرة هذا التراجع الذي نعانيه في أيامنا في كل مكان، وذلك أن التنوير إن لم يبادر بعمل تفكيري، يظل هذه اللحظة من تراجع فهو كمن يقوم بترسيخ قدره الخاص (بومنير ، 2010، ص 12- 13)، فلا يمكن تحقيق وعود التنوير في ظل العقلانية الأداتية، حيث ما أصبح على الواقع هو الهيمنة الممارسة من قبل السلطات المتحكمة، فقد تحطم العقل وتحول إلى أداة، إضافة إلى الانحراف نحو أساطير جديدة متمثلة بصورة خاصة في البربرية، وما يحيلنا إلى القول بأن نص جدل التنوير يشغل جزء مميزا في توجيه اهتمامات الجيل الأول من خلال البحث في أزمة التنوير وانسداد آفاق الحداثة.

إن من نتائج الأنوار والحداثة هو "اختفاء العقل" على حد تعبير "هوركهايمر"، أو انسحابه من السلب والتفكير المختلف والممكن، امام سطوة العقل الأداتي، أو التقني القائم على التكميم، والقياس والفاعلية والموجه، إلى ما هو عملي، وتطبيقي، ونفعي. فالأنوار حتى وإن ادعت تحرير الإنسان من عبوديته من الخوف والأساطير، وأدخلت العقل كأداة حاسمة في التعامل مع الأشياء والعلاقات والطبيعة والتاريخ، فلا يخفي أنها استسلمت لأساطير من نوع جديد. وسبب ذلك راجع أن الفشل الأكبر لحركة الأنوار لا يتجلى في عجزها عن خلق الشروط الاجتماعية التي تسعف الأشياء والكلمات على التوحد والتطابق، بقدر ما يتمثل في الاقصاء المنهجي للسلب من داخل اللغة والعقل.

وهذا ما يحيلنا إلى نتيجة مفادها أن الفكر وبمجرد وصوله إلى مستوى العجز عن التعبير عن السلب والنقد، فإنه لا يمكن ترجمة إرادة تحرير المستضعفين، أو حتى تحرير الناس من كامل أشكال العبودية والاضطهاد، فالتنوير قد أدى إلى كارثة كلية والعقل الأداتي في محاولته السيطرة على الطبيعة وعلى المجتمع والإنسان، و هو ما أسماه جورج لوكاش الفيلسوف المجري George Lukas [1885-1971] في كتابه "التاريخ والوعي الطبقي" "بالتشييء"، لقد أدى ذلك إلى الانحطاط الكامل وهذه الكارثة حصلت بفعل الهيمنة والسيطرة ليس للعقل الأداتي فقط وإنما للأسطورة أيضا (بغورة ، 2009، ص 219)، حتى غدا العقل الأداتي (التقني) النموذج الأوحد للمعرفة ولبوغ الحقائق(أبو النور حمدي، 2012، ص132-140).، إضافة إلى إلغاء القيم الدينية والجمالية والأخلاقية، وحتى الفلسفية باعتبارها لا تمتد بصلة للعلم والمعرفة التقنية وتم اعتبارها مجرد ميتافيزيقا. ولذلك، فان النقد الفلسفي موجه للانحراف الذي عرفه مشروع الحداثة والتنوير الذي تراجع عن قيم (العقل – الحرية – التقدم) مع التركيز على نقد العقلانية الأداتية، و تحول العلم و التقنية الى مجرد أيديولوجيا انحرفت بالإنسانية الى مسارات غريبة و خطيرة في كثير من الأحيان(هابرماس، 2003 ، ص43-46)، والكشف عن فظاعتها في المجتمعات المعاصرة ما يحيل للقول بأن العقل الذي تدعو إليه النظرية النقدية، لا يختزل فيما هو أداتي بل هو عقل جدلي خصومي (تواصلي عند هابرماس)، ذلك أنه يريد أن يعطي للتنظيم الاجتماعي حقيقة عقلانية و أنسنتها، وتوفير شروط المتعة والعدل والحرية.

5- أصول النزعة النقدية عند هابرماس:

أعطى هابرماس للتنوير دلالة إيجابية وفعالة، متعاليا عن صفاته السلبية المدمرة التي دمغها به أستاذاه أدورنو وهوركهايمر، حيث عبر عن التنوير العقلي في القرن العشرين مستعيدا ومستأنفا مشروع الحداثة على انه مشروع غير

مكتمل، كما حرص على تكوين رأي واع وحر ومستنير. فقد تأثر بالعديد من المذاهب والاتجاهات الفلسفية، إلى جانب الكانطية والهيجيلية والماركسية والتيارات الفلسفية الألمانية. إلا أن المصادر الأساسية للنظرية النقدية عنده، بدأت أولا من خلال تأثره العميق بفلسفة هايدغر، ثم رواد مدرسة فرانكفورت الذين جمعوا بين الفلسفة والسوسيولوجيا والمنظور السياسي في دراسة الواقع.

وقد أقر هابرماس بأنه مدين لآراء هوركهايمر فيما يتعلق بالاهتمامات البشرية، وكذلك الخبرة النقدية، وحاول أن يعيد النقد إلى الأبستمولوجيا كما فعل كانط، ولكنه في الوقت نفسه، يضم إليها كل التراث المكتسب من الماركسية والتحليل النفسي وعلم الاجتماع.

فإلى جانب تأثره بكل من كانط وهيجل، فان تأثير كلا من الماركسية والتحليل النفسي في أفكار هابرماس كبير لان فيهما غايات مشتركة، فالتحليل النفسي الفرويدي يقدم نموذجا لعلاج الأدوات النابعة من التشويه المنظم الذي تلحقه الإيديولوجيا واللغة(هابرماس، 2003 ، ص47-50)، ذلك أن المحلل النفسي يشجع مرضاه بلغة الكلام على مداواة العلل الناجمة من الذكريات والدوافع اللاشعورية، كذلك ينبغي على النظرية النقدية عند هابرماس أن تشجع البشرية بلغة الخطاب على أن تناهض القمع والزيف والتشيء الذي تنطوي عليه المعرفة.

أما التراث الماركسي في نقده للإيديولوجيا فهو يقدم نموذجا للنفاذ إلى بنى تحتية للمجتمع، والنظر إلى البنية الاجتماعية للمعرفة، حيث تكمن مهمة النقد الماركسي للإيديولوجيا في كونه يكشف النقاب عن الخدع الإيديولوجية للوعي المسيطر، والتغيرات السائدة ويرتكز على المصلحة المحررة.

لقد استفاد هابرماس من الماركسية والتحليل النفسي، وشيد نظرية نقدية تأويلية تنطلق من افتراض أن المعاني المتفق عليها تكون نتاج اتفاق زائف، وعليه فمهمة النظرية النقدية أن تبحث عن اتفاق حقيقي، ومعنى أصيل خال من

الهيمنة، مثلما كان يرمي إليه ماركس وهو تحرير البراكسيس، من خلال فهم كامل لفعل الضرورة، ولكن هذا التحرر لا ينفصل عن إدراك فطنة واعية بالحقيقة تمتلك القدرة على الإطاحة بمعميات ومبهمات الشعور الزائف، وما يهدف إليه فرويد Sigmund Freud [1856-1939] في حقل العلاج، هو أن يمكن الفرد من امتلاك معنى ظل عنه غريبا فيوسع بذلك رقعة وعيه، فيلغي اغترابه بحيث ان ما يهدف إليه هابرماس هو أيضا كشف زيف الوعي المتشكل بهيمنة السلطات، وتفوق الذاتية على أنها وحدها فقط هي المنتجة للحقيقة، وتقرير كون المعرفة نتاج بينذاتي intersubjective خال من الهيمنة (المحمداوي ، 2011، ص 43-44).

بهذا، سعى هابرماس جاهدا الى البحث عن حقيقة توافقية خالية من الهيمنة، مستفيدا من الماركسية والتحليل النفسي. كما توسعت الجذور الفكرية لهابرماس وشملت البعد السوسيولوجي الذي كان له أثر على اسلوب تفكيره، حيث أن مفهوم العقلنة rationalisation لماركس فيبر أحدث قفزة نوعية عنده، جاعلا منه خلفية فكرية من خلال مبدأ عقلنة المجتمع. فماكس فيبر من وجهة نظر هابرماس، هو أول من شدد على الربط بين الحداثة والعقلانية، وهي العلاقة التي يرى فيها فيبر الشرط الضروري الذي لولاه ما كان للحداثة الأوروبية أن تعرف طريقها نحو التجسيد الجزئي وتمظهرها التقني والسياسي البيروقراطي، فقد استطاع ماكس فيبر أن يقدم لوحة موسعة عن تشكيل الغرب الحديث، وهو ما لخصه بعبارة واحدة "العقلنة" (كوليو، 1994، ص65).

من خلال التحليلات النقدية، وانخراط يقظة التفكير الفلسفي، وإعادة قراءة عدد من علماء الاجتماع، تمكن هابرماس من صياغة مشروعه في العقلنة والحداثة والعقل الاجتماعي، فالحداثة هي العقلنة وماكس فيبر يعد أول من جعل الأولى شرط الثانية.

لا يعتبر التقدم العلمي والتقني سببا لصيرورة العقلنة، بل أحد مظاهرها، ولكن إذا قدر لهذا التقدم أن يتحرك فسيصبح أحد أكثر عوالم العقلنة فعالية (كوليو، 1994، ص81)، وهناك أوجه عدة لتمثلات العقلانية في المجتمع الحديث، وهابرماس يدعو إلى تلك الحداثة التي في جوهرها عقلنة، إلا أنه لا يتفق مع فيبر في كون العقلنة التي تعني التكميم والحساب، بمعنى ما يأخذ صداه في العالم الاجتماعي، على غرار عالم الاقتصاد وغيره، اذ يرى هابرماس أن هذه العقلنة تدعو إلى الأداتية في عالم الأنساق والاقتصاد، و يدعو بدلها الى عقلنة تواصلية تتخذ التفاهم، والتوافق والاجماع معايير وآليات لها.

6 -العقلانية التواصلية كبديل عن العقلانية الأداتية:

أراد هابرماس إعادة بناء العقلانية الاجتماعية، فقدم ما أطلق عليه العقلانية التواصلية في مقابل العقلانية الأداتية التي هاجمها الجيل الأول من أصحاب النظرية النقدية، وبذلك وضع معايير نقدية جديدة من أجل تأسيس نظرية للمجتمع تستهدف عقلنة الحياة الاجتماعية، أو بمعنى آخر إقامة حياة اجتماعية حرة على أسس عقلانية، ذلك أن الأداتية تحول الإنسان إلى أداة وموضوع طبيعي بينما، هو ذات لها ميزتها الإنسانية التاريخية والاجتماعية، فالعقلانية التواصلية كانت الحل المقترح من قبل هابرماس للتخلص من العقل الأداتي الذي سيطر على الإنسان.

لقد تأثرت النزعة النقدية عند هابرماس إلى حد كبير بعقلانية ماكس فيبر، فهي عند هذا الأخير تكمن في ثلاثة مجالات وهي مجال الواقعية الموضوعية العلمية، ومجال المعايير والمشروعية، وثالثا مجال القيم والدلالات الرمزية. حاول هابرماس إعادة صياغة هذا البناء العقلاني الاجتماعي، فأصبحت شروط السلوك العقلاني في رأيه لا تقتصر على مستوى المعرفي الأداتي، بل تمتد أيضا إلى مجال الأخلاق العلمية. يعيد هابرماس قراءة نظرية فيبر في العقلنة ضمن مراجعته

لمسألة الحداثة عبر تحديد ملامح وسلبيات الحداثة التي تنتج عن انعكاس نظرية فيبر على الممارسة الاجتماعية، ولذلك لابد من اعتماد مفهوم أكثر تعقيدا لفعل العقلنة، حيث تمكن من مساعدتنا على فهم المجال الذي يفتح عقلانية تصورات العالم كما تم التوصل إليها في الغرب، على تحديث المجتمع. من هذا المنطلق فقط يمكن تحليل عملية عقلنة أنماط الممارسة في امتدادها، وليس من الزاوية المحدودة لما هو معرفي أداتي، وإنما بإدخال الأبعاد الأخلاقية العملية، والجمالية التعبيرية (المحمداوي ، 2011، ص 50)، حيث أن السمات الأساسية للحداثة حسب ترتيبها من حيث الأهمية هي التقنية العلم الرياضي ارتباط الفن بعلم الجمال ظهور الثقافة وأفول المعاني القدسية الكبرى، فالبعد الجمالي هو الذي يمكن أن يقود الإنسان إلى الحرية، فالعقلانية الحقيقية هي التي تسعى إلى تنظيم اجتماعي محكم وعادل(سبيلا ، 2007، ص54).

إن المنعرج الهابرماسي يكمن في دعوته لعقلنة من نوع آخر، عقلنة لا تخضع للتكميم والاحتساب، بل إلى مصالح بشرية تقترن بالنقاش والحوار، الذي يعطي الشرعية والصلاحية والمعيارية للحقائق باعتبارها عقلانية (المحمداوي ، 2011، ص51)، حيث أن النقد عنده أخذ أبعادا أخرى. فهو يعتقد أن العقل الحديث لم يستنفذ كل إمكاناته للقيام بمراجعة ذاته، ومحاكمة نتاجاته اللاعقلانية، ومن ثم يتعين إيجاد تصور مختلف للعقلانية، إذا أردنا عدم السقوط في الأسطورة كما حدث لمعظم الفلاسفة الذين اعترضوا على عالم التقنية مثل هايدغر. لقد كان ماكس فيبر أول من جعل الحداثة والعقلنة ضمن علاقة ترابطية، وقد استقى هابرماس هنا فكرة مشروعه الحداثوي، ودافع عن الحداثة كمشروع لم ينجز بعد، وذلك باقتراحه للعقلانية التواصلية (هابرماس، 1995، ص500)، مقابل كل ما هو أداتي تقني.

7 – من أزمة التنوير إلى استئناف الحداثة: يمثل هابرماس أبرز الفلاسفة المعاصرين المعروفين بدفاعهم عن الحداثة، بوصفها مشروعا مازال له دوره الذي لم يكتمل بعد، ولكي يكتمل لابد من التخلص كما يرى من التمركزات والانكسارات التي حصلت فيما مضى، ومشروعه المتمثل في العقل التواصلي ليس الا امتدادا لعصر الأنوار، ويرى أن الحداثة تفسخت بسبب اعتمادها على ثوابت تتمثل في إرادة الهيمنة والتسلط وهذه الثوابت كانت دائما عقبات أمام تحقيق الحداثة.

وفي نظر هابرماس، أنه بدلا من التخلي عن مشروع الحداثة، يتوجب القيام بالفحص النقدي لهذا المشروع وإظهار سلبياته وإيجابياته، واستخلاص الدروس اللازمة من ذلك وأهم فكرة يرفضها هابرماس عند المحافظين الجدد هو معارضتهم العقل الأداتي وربطه بفكرة إرادة القوة والهيمنة من دون تقييم لدوره الإيجابي في العلم وبناء الحضارة. لذلك، يعمل هابرماس بخلاف نقاد الحداثة الآخرين في آلية نقده للحداثة إلى إنجاز النقد من الداخل، أي عبر إعادة بناء الحداثة معنى ومشروعا لا كما يرى نقادها الآخرون الذين وجدوا أنها قد انتهت ولابد من إعلان نهايتها وقد صنفهم إلى اتجاهات ثلاثة هي:

- المحافظون القدامى: الذين رأوا أن الحداثة، وبمقاطعتها للتقاليد والموروث لم تعد ترضيهم لأن همهم هو الحفاظ على ذلك الماضي وتلك التقاليد.

- المحافظين الجدد: الذين وجدوا أن الحداثة حينما اقتحمت العالم الاجتماعي أنتجت لنا ويلات عدة، ومشاكل جمة، لم يستطع الإنسان حلها إلى يومنا هذا لذلك وجب قصرها على عالم الأنساق والمنظومات وهو عالم الاقتصاد والإدارة بالذات ويمكن أن نقول إن مشكلتهم مع الحداثوية المنتجة، أما الحداثة فقد أخذت على عاتقها الخلاص من هذه الأزمة مع هابرماس.

- تيار ما بعد الحداثة: الذي رأى بأن الحداثة كحقبة زمنية، ومشروع فلسفي قد أنجزت ووجب تجاوزها.

وبالرغم من كل تلك الاتجاهات التي مثلت نقد الحداثة من خارجها، إلا أن هابرماس حاول العمل بمقولة هيجل من إن الحداثة تجد في ذاتها عبر النقد الذاتي ضماناتها الخاصة، فوحدها الفكرة التي تمارس العنف على ذاتها الصلبة والقادرة على القضاء على الأساطير.

يؤكد هابرماس أن طريق الحداثة، هو العقل والعقلانية، ونقد الحداثة لابد أن يمر في رأيه عبر تفحص مقولاتها واكتشاف بيئتها فقد أعلن في أكثر من مناسبة بأن الحداثة لم تكتمل فهي تحتاج إلى إعادة مراجعة وتأمل عميق بدلا من إعلان إفلاسها (أبو النور حمدي، 2012، ص121-130).

أما أسس الحداثة فقد نخرتها أزمات، وتتمثل هاته الأزمات حسب هابرماس فيما يلي:

1. ما يتعلق بمبدأ الذاتية، أزمة التمركز حول الذات وإلغاء الآخر وجعل الحقيقة نتاج الذات فقط.
2. مبدأ العقلانية، وما يتعلق بها من أزمة تحويل الإنسان إلى جزء من الطبيعة وبالتالي تشيؤه وبهذا المعنى يتم تحويل ما هو إنساني إلى شيء جامد وغير إنساني، بحيث يصبح على هيئة عالم من الأشياء شأن العالم الطبيعي الذي له قوانينه الخاصة والمستقلة عن إرادة البشر، وكأن هناك قوة أسمى من الإنسان يجب أن يخضع لها.
3. مبدأ العلموية في إنكار أحقية أي نمط من أنماط المعرفة بامتلاك الحقيقة إلا في العلم، وذلك جعل من الإنسان حبيس إيديولوجيا جديدة هي العلمية التقنية.

أما عن معنى عبارة هابرماس "الحداثة مشروع لم ينجز بعد"، فهو يعني بذلك أن الحداثة لم تنجز لأنها تعالج مشاكل لم يتم حلها بعد ولأنه يعتقد أنه من العبث واللاجدوى للوقوف بوجه الحداثة، لأن بدائلها أسوء منها فتصبح الطروحات المخالفة للحداثة(المحمداوي ، 2011، ص 117- 118)، كنسق بديل غير شرعية لأن الحداثة، بإنسانيتها وعقلانيتها لم تستطع علاج تلك المشاكل فالتأكيد إن الخيارات المخالفة للأنسنة والعقلنة ستكون أسوء من الحداثة، ومن ذلك يجب الأخذ برأي أن الموضوعات التي تعالجها الحداثة لم تنته ولهذا فمشروع الحداثة لم ينته بعد، قد حاول هابرماس تشخيص الأزمات التي تعتري مفهوم الحداثة وأسسها من أجل تبيان وجهة نظره في استمرارية المشروع الحداثوي والتأكيد أن بدائل الحداثة أسوء بكثير فيجب معرفة التعامل مع عوائق الحداثة لأنها تحتاج إلى مراجعة فقط بدل إلغائها.

يؤكد هابرماس في كل كتاباته على أنه بالرغم مما يمكن توجيهه من نقد للحداثة والعقلانية بالرغم من بعض النتائج التراجيدية التي ولدتها العقلانية التقنية، فإنه لا يمكن بأي حال من الأحوال التخلي عن العقل والدعوة إلى التخلص منه (أفاية ، 1998، ص 133). فهو يرى أن الأفكار ما بعد الحداثية تفتقر إلى التأمل الذاتي والتأمل الذاتي ليس إدراك الأفراد ووعيهم لذواتهم بل ذلك الإدراك النظري لما يدفع مجموعة محددة من الأفكار لأن تغدو شعبية في لحظة محددة (ألن، 2010، ص232).

إن نموذج المناقشة وإتيقا المناقشة، الذي وجد فيه هابرماس حلا لاستثمار القدرات العامة والقبلية المطلوبة لأداء ناجح لأفعال الكلام في الممارسة التواصلية، بدأ بنصه الذي ظهر عام 1980 بعنوان الحداثة مشروع لم يكتمل، فقد انتقد هابرماس اتجاهات الحداثة وما بعدها، مقدماً في الوقت نفسه البديل

الذي يتجلى في العقل التواصلي(هابرماس، 2010، ص8) ،ففي نظره بدلاً من التخلي عن المشروع الحداثي، يجب القيام بفحص نقدي لهذا المشروع.

حيث يحاول وضع ملامح لموضوعه المتعلق بالحداثة موضحاً أنها مشروع غير منجز، وهو يشير إلى فكر الحداثة الجمالية، فيركز على الحداثة الجمالية مع بودلير التي تأخذ حدوداً أكثر وضوحاً، والذي يتميز بمواقف تتمركز حول وعي متغير للزمن، وهذا الوعي يصف ذاته مستعملاً استعارة مكانية وإعطاء الأهمية لما هو جديد يعني حقا تمجيد حالية تلد كل مرة من جديد ماضياً ذاتي التجديد، فالوعي الجديد للزمن يهدف إلى حاضر نقي متوقف والحداثة بوصفها حركة تنفي ذاتها هي توق إلى حضور الحق. ولذلك أصبح الاعتقاد بالحداثة الجمالية بالياً، فطاقة الحداثة قد استنفذت تماما، وهذه الأزمة يمكن إرجاعها إلى قطيعة بين الثقافة والمجتمع، بين الحداثة الثقافية ومتطلبات النظام الاقتصادي. فالحداثة من هذا المنظور، هي الإغراء الكبير الذي يحمل مبدأ التحقيق الذاتي غير محدود، وهكذا يرجع بل تحلل الأخلاق البروتستانتية إلى حضارة مناوئة، أي حضارة حداثتها تنشر العداوة ضد تقاليد وفصائل حياة يومية.

فقد تساءل هابرماس عن كيفية ظهور معايير تضع حدا للانهيار الخلقي، وكان الحل من وجهة نظره في التجديد الديني، وهو حسب ذلك كله يفترض أن تكون الحداثة قد أنهك نبضها نهائياً.كما يدافع هابرماس عن الحداثة باعتبارها مشروعا ما زال له دوره الذي لم يكتمل بعد، وذلك من خلال توضيحه لكل العقبات التي تقف أمام تحققه مقترحا بديله في التواصل (أبو النور حمدي، 2012، ص270-276)، ومشيراً إلى الحداثة الجمالية مع بودلير.

واعتبارا، يركز هابرماس على مسألة أخرى خاصة بالحداثة الغير المنتهية وهي: "الحداثة الثقافية والتحديث الاجتماعي"، فقد كانت نقطة انطلاقه هي النقاش الفكري والسياسي مع أنصار الحداثة الثقافية، فقد أوضح أن هذه الفكرة أو هذا

النقاش أدى إلى وجود علاقة بين الحداثة والعدمية، وبين البرامج الاقتصادية والاجتماعية وبين تدخل الدولة الكليانية.

فالمحافظون الجدد ينسبون إلى الحداثة الثقافية الأعباء المزعجة الناتجة عن تحديث ناجح للاقتصاد والمجتمع، حيث أن هاته الأخيرة (المحافظون الجدد) بطمسها للروابط الموجودة بين التحديث الاجتماعي من جهة وأزمة الحوافز التي تأسف لها من جهة أخرى تنسب بذلك بشكل عشوائي كل ما يبدو في أيامنا مثل النرجسية إلى ثقافة لا تتدخل مع ذلك في أي من هذه المظاهر بصورة مباشرة أو غير مباشرة (أوتوابل ، 2005، ص ص 36-37)، والسبب أنهم ما زالوا لا يؤمنون بمشروع الحداثة، حيث ليس كافياً أن الحداثة الثقافية تنتج إحراجاتها الخاصة بها وإليها بالضبط يشير المثقفون الذين يعلنون ما بعد الحداثة أو ينصحون بالعودة إلى ما قبل الحداثة أو يرفضون الحداثة بتطرف، ولكن بصرف النظر عن المشاكل الناتجة عن التحديث الاجتماعي، ومن خلال الرؤيا الداخلية للتطور الثقافي تبرز دوافع الشك لا بل اليأس من مشروع الحداثة.

وقف هابرماس موقفاً معارضاً لموقف ما بعد الحداثيين، ونقده يتجه إلى ما يعتبره نوعاً من النزعة المحافظة الجديدة لدى هؤلاء حيث أن في مقالته "الحداثة مشروع لم يكتمل" وكتابه "خطاب الحداثة الفلسفي" يلقي بشبكته الواسعة والدقيقة لكي يحدد خطوط التصدعات الفكرية التي أنتجت ما بعد الحداثة (ألن، 2010، ص 225-226). يهدف هابرماس في آلية نقده إلى إعادة بناء الحداثة معنى ومشروعاً، وذلك بالوقوف عند الأسباب التي عرقلت مسار الحداثة،متسائلا كيف نتخلص من التجاوز المزيف للثقافة؟ ويجيب قائلاً بأنه يجب أن نتعلم من الأخطاء التي رافقت مشروع الحداثة، ومن أخطاء مشاريع الإبطال الثقافي المغالية، بدلاً من أن نعلن خسارة الحداثة ومشروعها، فقد يكون الفن مخرجا من إحراجات الحداثة الثقافية.

لا شك ان الانقلاب الذي حدث في المنظومة المفاهيمية لمشروع الحداثة، أدى إلى الانتقال في الحديث من العقل إلى اللاعقل، ومن المعنى إلى اللامعنى والعدمية، فكيف أن العقل في مسار الحداثة كان يدعي الإجابة عن كل الأسئلة تحول نحو صمت وضياع لدرجة تسمية كل هذا بمأزق الحداثة الغربية حيث تزعزعت مجمل المفاهيم الحداثية وفتح المجال لتيارات فلسفية اتخذت من النقد والمعاداة منطلقا لتأسيس مفهوم ما بعد الحداثة.

لقد وجه النقد للحداثة من قبل تيارات الما بعدية، التي تدعو إلى ضرورة تجاوز الحداثة وذلك من خلال دحضها ونقد العقل، اما هابرماس فهو ينطلق في مشروعه من اعتبار الحداثة مشروعا غير مكتملا،وهو بذلك لا يعلن القطيعة معها كما فعل من عرفوا بفلاسفة ما بعد الحداثة، ذلك أن مسعاه النقدي يتمثل في تقويم الحداثة والعقلانية (هابرماس، 2002، ص46)، فالحداثة كما بيّن تمر بأزمة، فلا بد من تشخيص هاته الأزمات ومحاولة إتمام المشروع الحداثي بدلا من إعلان إفلاسه مقترحاً مشروعاً يؤكد فيه على لا اكتمالية الحداثة.

8-الخاتمة:

تكمن أهمية فلسفة هابرماس، في رسم ملامح جديدة في تعامله مع هذا العصر، حيث حرص على بلورة مشروع فلسفة تواصلية، وتحقيق إيتيقا التفاهم وذلك في إطار ما يسمى بالنقاش العمومي، باعتباره سنداً منهجيا للانخراط الفلسفي في قضايا المجتمع والفلسفة المعاصرة. ولأجل ترسيخ مشروعه النقدي، اهتم بالفلسفة السياسية ومقاربات علم الاجتماع، وكل الشأن العمومي تفعيلاً ونقاشاً.

أراد هابرماس مثله مثل سائر فلاسفة مدرسة النقد الاجتماعي، أن يستأنف مشروع ماركس في نقد المجتمع، وأشكال الاستلاب aliénation الحديث، و فهم الماركسية على أنها نظرية نقدية كبرى بشرط أن تكون جدلية، حيث أنه عارض

الوضعية Positivisme بقوة، ورأى أن مهمة الفلسفة المحافظة على إمكانية الابقاء على خطاب عقلاني يضمن اشتغال الديمقراطية (خاصة الديمقراطية التشاورية التي ينادي بها هابرماس) ، و استئناف مشروع الحداثة و التنوير.

حيث تمكن بحسه النقدي، من إعادة بناء المستخلصات النظرية للحداثة، ولكن بشرط صياغتها وفق مفهوم جديد للعقل التواصلي، فهو يعتبر أن العقل الأداتي، أكبر دليل على ظاهرة التمركز حول العقل العلمي التقني، و بين كيف أن حركة التصور العلمي في عصر الأنوار أدت إلى ظهور هذا العقل، ويوضح الأسس التي أدت لظهور العقل الأداتي، ومنها الآليات التي وضعها وأرساها النظام الحديث، ولذلك فهو يقترح حلاً جذرياً لهذا التمركز أسماه بالعقل التواصلي، الذي يقوم على تنشيط التواصل وقيمة الإنسان في المجتمع، بتفعيل لغة النقاش و الديمقراطية التشاورية و خلق الفضاءات العمومية التي تعزز التفاعلات الاجتماعية، فالعقل التواصلي هو المخرج من أزمة هيمنة العقل الأداتي.

إن هذا العقل التواصلي يتجاوز الذات، ليكون نسيجاً من الذوات التواصلية التي تتجاوز ذاتيتها تحقيقا للتوافق والمشاركة. فهو يلجأ إلى طلب الدعم من نظرية الفعل التواصلي، ذلك أن بلورة مفهوم متكامل عن العقلانية التواصلية يسمح بإجراء تقييم واضح لمدى الخراب الذي ألحقته الأداتية بالعقل والمجتمع معا، ومرد ذلك إلى أن أول ما يتعرض للفساد في مجتمع التبادل المعاصر، هو بالضبط ذلك المجال الذي يدور فيه التفاعل عن التواصلي في أي عالم من عوالم المعيش والعمل. يحاول هابرماس صياغة العقلانية بمعنى تواصلي جديد، من خلال إدانته للأداتية، فالعقل التواصلي هو المنظم للنشاط التواصلي الاصيل لتحديد وتنظيم العلاقات الاجتماعية، والعودة الى استئناف مشروع الحداثة ووعود التنوير كانخراط فلسفي ونقدي أصيل.

-التعليقات والشروح :

1 - شهد تطور النظرية النقدية لدى مدرسة فرانكفورت، مرورها بعدة اجيال و مراحل، الأولى وهي المرحلة التأسيسية يمثلها الجيل الأول وعلى رأسهم ماكس هوركهايمر Max Horkheimer [1895-1973]، وثيودور أدورنو Theodor Adorno [1903-1969]، وهربرت ماركيز هاربرت ماركيز Herbert Marcuse [1898-1979]، أما الثانية وتمثل الجيل الثاني على رأسهم يورغن هابرماس وكارل أوتوابل Carl Otto Apple [1922-2017]، أما الثالثة ويمثلها اليوم أكسل هونيت (Axel Honneth) [1949] وهو المدير الحالي لمعهد الدراسات الاجتماعية بفرانكفورت.

2 - على حد تعبير وزير الخارجية الألماني" يوشكا فيشر "فان هابرماس هو"فيلسوف الجمهورية الألمانية الجديدة" لأنه الفيلسوف الوحيد الذي اكتسح صيته المشهد السياسي والثقافي في ألمانيا والاتحاد الأوربي على حد سواء.

3 - تيودور أدورنو Theodor Adorno [1903-1969]، فيلسوف ألماني معاصر أحد ممثلي مدرسة فرانكفورت كان شديد الشغف بالموسيقى، قرأ لكانط نقد العقل المحض، تقوم فلسفته على نقد جذري للحداثة وفضح ما آلت إليه المجتمعات الرأسمالية المتقدمة من بربرية، من بين كتبه: جدلية التنوير بالمشاركة هوركهايمر، الأخلاق الدنيا، الجدلية السالبة، النظرية الجمالية.

4 - هاربرت ماركيز Herbert Marcuse [1898-1979]، فيلسوف ومنظر اجتماعي وناشط سياسي، أحد أعضاء معهد الأبحاث الاجتماعية، قدم نظرية حول المجتمعات "ذات البعد الواحد"، انتقد فيها كل من الرأسمالية المعاصرة، ومجتمع الدولة الشيوعية، كان أول من فسر الماركسية من خلال استشراق أعمال ماركس الشاب قدم بمشاركة بسيطة لهوركهايمر بحثه "الفلسفة والنظرية النقدية".

-قائمة المصادر والمراجع:

ا- المصادر:

1- يورغن هابرماس ،(1995)، ***القول الفلسفي للحداثة***، تر: فاطمة الجيوشي، منشورات وزارة الثقافة، دط، دمشق.

2- يورغن هابرماس ،(2001)، ***المعرفة والمصلحة***، تر: حسن صقر، منشورات الجمل،ط1، كولونيا، ألمانيا.

3 - يورغن هابرماس ،(2010)، ***إيتيقا المناقشة ومسألة الحقيقة***،تر: عمر مهيبل، دار العربية للعلوم ناشرون، منشورات الإختلاف،ط1، الجزائر.

4 - يورغن هابرماس ،(2002)، ***بعد ماركس***، تر: محمد ميلاد، دار الحوار للنشر والتوزيع، ط1- اللاذقية،سوريا.

5- يورغن هابرماس، (2003)،***العلم و التقنية كايديولوجيا***، تر:حسن صقر، منشورات الجمل،ط1، كولونيا، ألمانيا.

ب- المراجع:

6 - أوتوابل كارل،(2005)، ***التفكير مع هابرماز ضد هابرماز***، تر: عمر مهيبل، الدار العربية للعلوم، منشورات الاختلاف، المركز الثقافي العربي،ط1، الجزائر.

7 - هوركهايمر ماكس، أدورنو ثيودور،(2006)، ***جدل التنوير***، تر: جورج كتورة، دار الكتاب الجديدة المتحدة،ط1، بيروت، لبنان.

8 - فينلسون جيمس جوردن،(2015) ***يورغن هابرماس***، تر: أحمد محمد الروبي، المؤسسة الهنداوي للتعليم والثقافة،ط1، القاهرة.

9 - تيلين- كاترين كوليو،(1994) ***ماكس فيبر والتاريخ***، تر: جورج كتورة، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، ط1، بيروت، لبنان.

10- هاو ألن، (2010) ،***النظرية النقدية***، تر: ثائر ديب، دار العين للنشر ،ط1، القاهرة.

11- بغورة الزواوي، (2009)، ***ما بعد الحداثة والتنوير***، دار الطليعة للطباعة والنشر،ط1، بيروت، لبنان.

12-أوترام دوريندا،(2007)، ***التنوير***، تر: ماجد موريس إبراهيم، دار الفرابي للنشر، ط1، بيروت، لبنان.

13-سبيلا محمد، ***الحداثة وما بعد الحداثة***، دار التوبقال، ط2، المغرب.

14-برينتون كرين، (1984)، ***تشكيل العقل الحديث***، تر: شوقي جلال، عالم المعرفة،دط، الكويت، أكتوبر.

15 -أفاية محمد نور الدين، (1998)، ***الحداثة والتواصل في الفلسفة النقدية المعاصرة***، افريقيا الشرق، ط2 ،المغرب.

16-الخوني محسن، (2006)، ***التنوير والنقد***، دار الحوار للنشر والتوزيع،ط1، اللاذقية، سوريا.

17-بورحلة فتيحة وآخرون، (2013)، ***سؤال الحداثة والتنوير بين الفكر الغربي والفكر العربي***، منشورات دار الأمان، منشورات الاختلاف، ط1، بيروت، لبنان.

18-بومنير كمال، (2010)، ***النظرية النقدية لمدرسة فرانكفورت***، منشورات الاختلاف، الدار العربية للعلوم ناشرون، دار الأمان، ط1،الجزائر.

19-المحمداوي علي عبود، مهنانة إسماعيل، (2012)، ***مدرسة فرانكفورت النقدية***، ابن النديم للنشر والتوزيع، دار الروافد الثقافية ناشرون، ط1،بيروت، لبنان.

20-المحمداوي علي عبود، (2011)، ***الإشكالية السياسية للحداثة***، منشورات الاختلاف، دار الأمان،"ط1 الرباط.

21-أبو النور حمدي أبو النور، (2012)، يورغن هابرماس الاخلاق و التواصل، دار التنوير للطباعة و النشر و التوزيع، ط1،بيروت-لبنان.